أسس دراسة تاريخ صدر الإسلام والدولة العباسية في منظور العقل الاستشراقي الغربي الحديث والمعاصر

The foundation of studying the history of Islam and the Abbasid state in the perspective of modern and contemporary Western Orientalism

Mohammed Aissaoui 1

محمد عيساوي [1*]

[1] جامعة محمد بوضياف، mohammed.aissaoui@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: **2020/03/30** تاريخ القبول: **2021/04/27** تاريخ النشر: **2021/12/28**

ملخص:

تتمحور الورقة البحثية حول الاستشراق الحديث والمعاصر وآراؤه حول تاريخ صدر الإسلام والدولة العباسية؛وتم التطرق في مضامينها إلى ماهية الاستشراق ،ثم نشأته ودوافعه،و من بعد ذلك تم معالجة الأسس والمناهج التي بنى عليها رواد المستشرقين كتاباتهم حول المشرق الإسلامي.ويهدف الموضوع إلى بلورة رؤية موضوعية نقدية رصينة من الإنتاج الاستشراقي المتعلق بفترة تاريخ المشرق الإسلامي،وتم استخدام المنهج التاريخي بآلياته التحليلية والنقدية. وتوصل البحث إلى أهمية المراجعات النقدية الهادفة والبناءة في الدراسات الاستشراقية،والتي رشح من خلالها ملامح البحث التاريخي الاستشراقي المؤسس على إسقاط التصورات الغربية على التاريخ الوسيط،والتعميم في إطلاق الأحكام،و نزعة المبالغة في الشك،والافتراض،واعتماد ما لا يصح من الروايات.

كلمات مفتاحية: الاستشراق، الدولة العباسية، الدولة الأموية، النقد، صدر الإسلام.

Abstract:

The research paper revolves around modern and contemporary Orientalism and its views on medieval history, and its contents addressed the essence of Orientalism, then the origins and motives of Orientalism, and then the foundations and approaches on which the oriental pioneers built their writings were addressed. The topic aims to develop a critical objective vision of Orientalist production, the historical method was used with its analytical and critical mechanisms. The research reached the importance of purposeful critical reviews, through which he filtered the features of the Orientalist historical research based on

[*] **المؤلف المرسل:** محمد عيساوي، **الإيميل:** mohammed.aissaoui@univ-msila.dz

projecting Western perceptions on medieval history, generalizations in the issuance of judgments , the tendency to exaggerate doubt, assumption, and the adoption of what is not true of narrations, and in return there is an orientalist orientation neutral distanced himself from the approach of risk and prejudice.

Keywords: Abbasid state- Contemporary Orientalism-History of Islam-Medieval history .

Résumé:

Le document de recherche s'articule autour de l'orientalisme moderne et contemporain et de ses vues sur l'histoire médiévale ,et son contenu abordait l'essence de l'orientalisme ,puis les fondements et les approches sur lesquels les pionniers orientaux ont construit leurs écrit ont été abordés . Le sujet vise à développer une vision objective critique de la production orientaliste, La méthode historique a été utilisée avec ses mécanismes analytiques et critiques. La recherche a atteint l'importance d'examens critiques ciblés à travers lesquels il a filtré les caractéristiques de la recherche historique orientaliste basée sur la projection des perceptions occidentales sur l'histoire médiévale ,les généralisations dans la publication des jugements , la tendance à exagérer le doute ,l'hypothèse et l'adoption de ce qui n'est pas vrai des narrations, et en retour il y a une orientation orientaliste objectif et neutre s'est éloigné de l'approche du risque et des préjugés .

Mots clés :

Etat abbasside- Histoire médiévale - Orientalisme moderne - Orientalisme- contemporain

مقدمة

دأب العقل الاستشراقي في الفترة الحديثة والمعاصرة على دراسة مختلف الجوانب المتعلقة بالمشرق الإسلامي ،ولعل من بين أبرزها التاريخ،فأكبوا على البحث والكتابة في مختلف المراحل المفصلية التي مر العصر الوسيط بدءا بالسيرة النبوية مرورا بالتاريخ الأموي فالدولة العباسية. وبناء على ما سبق يتحرى البحث معالجة إشكالية محورية فحواها: ما هي أهم الأسس والمعايير التي تستند إليها جمهرة البحوث التاريخية الاستشراقية في دراسة تاريخ المشرق الإسلامي في العصور الوسطى؟ وبخصوص تحديد أهداف البحث فتتمثل أساسا في معرفة أهم الخلفيات المنهجية التي استند المستشرقون بغية بلورة رؤية تاريخية نقدية شاملة لآراء رواد أشهر المدارس الاستشراقية حول عصر صدر الإسلام لسيرة النبوية ،مرورا بتاريخ الدولة الأموية فالدولة العباسية .

وفيما يتعلق بالمنهجية المتبعة فهي تستند أساسا على المنهج التاريخي بمختلف آلياته التحليلية والنقدية ؛ و تم التركيز على أهم الأسس التي اتسمت بها أشهر إصدارات رواد المدارس الاستشراقية في الفترة الحديثة والمعاصرة ،وذلك وفق نماذج مركزة ومحددة،وفي ضوء المادة العلمية المتوفرة.

1. مفهوم الاستشراق والمستشرقين :

يجدر بنا في البداية تحديد مفهوم الاستشراق والمقصود من المستشرقين،حتى نتمكن من استيعاب وفهم أسس الدراسات الاستشراقية.

1.1 من الناحية اللغوية :

مأخوذة من كلمة شرق ثم أضيف إليها ثلاثة حروف هي الألف والسين والتاء،ومعناها طلب الشرق،وليس طلب الشرق سوى طلب علوم الشرق وآدابه ولغاته وأديانه.أما في اللغات الأوروبية فثمة تعريف آخر يدل على أن المقصود بالشرق ليس الشرق الجغرافي وإنما الشرق المقترن معنى الشروق والضياء والنور والهداية. وهذا ما تناوله الباحث سيد محمد الشاهد في تعريفه للاستشراق مستعينا بالمعاجم الغربية حيث يرى أن كلمة استشراق لا ترتبط فقط بالمشرق الجغرافي وإنما تعني أن الشرق هو مشرق الشمس ولهذا دلالة معنوية بمعنى الشروق والضياء والنور والهداية بعكس الغروب بمعنى الأفول والانتهاء. أما فيما يتعلق بالمعاجم اللغوية الأوروبية(الألمانية والفرنسية والإنجليزية)؛فكلمة شرقORIENT فيشار إلى منطقة الشرق المقصودة بالدراسات الشرقية بكلمة تتميز بطابع معنوي وهو Morgenland وتعني بلاد الصباح،ومعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس،وتدل هذه الكلمة على تحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن معنى النور واليقظة، وفي مقابل ذلك نستخدم في اللغة كلمة Abendlandوتعني بلاد المساء لتدل على الظلام والراحة. وفي اللاتينية تعني كلمة Orient:يتعلم أو يبحث عن شيء ما،وبالفرنسية تعنى كلمة Orienter وجه،أو هدى،أو أرشد،وبالإنجليزية, Orientation وorientate تعني" توجيه الحواس نحو اتجاه أو علاقة ما في مجال الأخلاق أو الاجتماع أو الفكر أو الأدب نحو اهتمامات شخصية في المجال الفكري أو الروحي."ومن ذلك أن السنة الأولى في بعض الجامعات تسمى السنة الإعدادية Orientation .وفي الألمانية تعني كلمة" Sich Orientiern " يجمع معلومات (معرفة) عن شيء ما. (الشاهد،1994، ص.191-197).

1.2 من الناحية الاصطلاحية :

يعد مصطلح الاستشراق وما يشتق منه نحو مستشرق،من التسميات الحديثة،وإن كان مدلولها قديما،ويحدد المفكر الجزائري مالك بن نبي مدلول فئة المستشرقين بأولئك الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي،وعن الحضارة الإسلامية،ثم أكد على ضرورة تصنيفهم في طبقات على صنفين،أحدهما من حيث الزمن ويمثل طبقة القدماء مثل جربرت دورلياك(Gerbert of

Aurillac)وطبقة المحدثين مثل جولد تسيهر(Ignaz Goldziher)،ومن حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتاباتهم،فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية،وفي المقابل طبقة المنتقدين لها،المشوهين لسمعتها.(ابن نبي، 1969، ص.05). وهناك من يقسم مصطلح الاستشراق إلى معنين؛ أحدهما المعنى العام ،ويطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله أقصاه ووسطه وأدناه،في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه، أما المعنى الخاص فهو ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي؛ والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته.ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي،معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما.(زقزوق،1997،ص.18).بينما يوجد من الباحثين من يرى أن مصطلح الاستشراق هو عبارة عن تعبير أطلقه غير الشرقيين على الدراسات المتعلقة بالشرقيين،أديانهم،وتاريخهم،وشعوبهم،ولغاتهم،وحضارتهم،وأوضاعهم الاجتماعي،وبلدانهم،وما فيها من كنوز وخيرات،وكل ما يتعلق بهم.(الميداني، 2000، ص.118).

2.نشأة الاستشراق :

لا ريب أن تاريخ الدراسات الاستشراقية خاصة تلك المتعلقة بالشرق الإسلامي وحضارته قديم،غير أن آراء العلماء والباحثين تتباين بشأن تحديد البدايات التاريخية لتلك الدراسات،وتتجه أكثر الآراء إلى تحديد فترة زمنية،وليس إلى تحديد سنة بعينها لبداية الاستشراق؛ لأنه لا يعرف بالضبط من هو أول غربي عني بالدراسات الاستشراقية و لا في أي وقت كان ذلك،ولكن هناك رأي مشهور أكد على أن بعض الرهبان قصدوا الأندلس إبان عظمتها ومجدها،وتثقفوا في مدارسها،وترجموا القرآن الكريم والكتب العربية إلى لغاتهم،وتتلمذوا على يد علماء المسلمين في مختلف العلوم والمعارف،وبصفة خاصة في الفلسفة والطب والرياضيات. (السباعي، 2013، ص. 17) .ومن أوائل هؤلاء الرهبان الراهب الفرنسي جربرت الذي انتخب بابا(Pope Sylvester II) لكنيسة روما عام 999م،بعد تعلمه في معاهد الأندلس،وعودته إلى بلاده ،وبطرس المحترم 1092 م – 1156 م،وجيرار دي كريمون (Gerard of Cremona) 1114 م – 1187 م. وبعد أن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم ،ثم أسست المعاهد للدراسات العربية أمثال مدرسة بادو العربية و أخذت الأديرة والمدارس العربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية ،وهي لغة العلم في جميع بلاد أوربا يومئذ،واستمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب،وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون. وقد جعل نجيب العقيقي مؤلفه عن الاستشراق والمستشرقين سجلا لحركة الاستشراق على مدى ألف عام،بدءا من القرن العاشر الميلادي؛حيث أخذ يرصد طلائع المستشرقين منذ ذلك التاريخ،فذكر في مقدمتهم جربرت دورلياك ،الذي انتخب حبرا أعظم باسم سلفستر الثاني(Pope Sylvester II) 999 م / 1003 م ،فكان أول بابا فرنسي،ثم ثم بقسطنطين الإفريقي المتوفى عام 1087 م،وبعده أوجودي سانتالا(Ugo di Santalla) وغيرهم حتى الأسقف جويستنياني المولود عام 1470 م ،وليون الإفريقي 1494 م – 1552 م . (العقيقي،1964،ص. 110) .

وهناك من الباحثين من يرى أن بداية الاستشراق الأوربي كانت في القرن الثالث عشر الميلادي؛ حيث صدر قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312 م،بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية . (زقزوق،1997، ص.18).

3.دوافع الاستشراق :

لقد كان للحركة الاستشراقية دوافع شتى،وأهداف عديدة وخاصة ما يتعلق منها بالدراسات الإسلامية،وتجدر الإشارة إلى أن من الباحثين من يفرط في الثناء على المستشرقين عند الحديث عن دوافعهم،ويذهب إلى أن الدافع العلمي النزيه كان وراء نشأة الاستشراق،وأن الرغبة في خدمة العلم كانت الحافز الأعظم للدراسات الاستشراقية،بينما يفرط البعض في التحامل على المستشرقين؛ مجردا إياهم من كل قصد نبيل. وفي الحق أن كلا من الثناء المطلق والتحامل المطلق يتنافى مع الحقيقة التاريخية التي سجلها هؤلاء المستشرقون فيما قاموا به من أعمال،و ما تطرقوا إليه من أبحاث،ونحن من قوم يأمرهم دينهم بالعدل حتى مع أعدائهم. (السباعي، 2013، ص. 15) ونحن إذ نقرر هذا فإنه يؤسفنا القول بأنه إن كان هناك من قصد نبيل أو دافع بريء للمستشرقين؛فإنه يبدو ضئيلا جدا،أو تائها في محيط الدوافع الكثيرة المشبوهة،أو الأهداف المريبة والمقاصد غير النزيهة،كما يتضح هذا من خلال إنتاج المستشرقين.(علي محمد، 2013، ص. 31) . وبناء على ما سبق يمكن بيان مختلف الدوافع التي أدت إلى ظهور الاستشراق:

1.3 الدافع الديني :

لا يحتاج الباحث إلى استنتاج وجهد في البحث لكي يتعرف إلى الدافع الأول للحركة الاستشراقية ألا وهو الدافع الديني ،فقد بدأ الاستشراق بالرهبان واستمر كذلك حتى العصر الحاضر،وهؤلاء كان يهمهم أن يطعنوا في الإسلام،ويشوهوا محاسنه،ويحرفوا حقائقه،لكي يثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار،وأن المسلمين قوم همج لصوص و سفاكو دماء،يحثهم دينهم على الملذات الجسدية ويبعدهم عن كل سمو روحي.(السباعي، 2013، ص. 18) .

2.3 .الدافع الاستعماري:

لما انتهت الحروب الصليبية بهزيمة الصليبين،وهي في ظاهرها حروب دينية وفي حقيقتها حروب استعمارية،لم ييأس الغربيون من العودة إلى احتلال بلاد العرب فبلاد الإسلام،فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات؛ليتعرفوا إلى مواطن القوة فيها فيضعفوها،وإلى مواطن الضعف فيغتنموه،ولما تم لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية كان من دوافع تشجيع الاستشراق إضعاف روح المقاومة في نفوس أبناء الأمة الإسلامية،وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا،وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما بأيدينا من تراث،وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية،فنفقد الثقة بأنفسنا،ونرتمي في أحضان الغرب نستجدي منه المقاييس الأخلاقية،والمبادئ العقائدية،وبذلك يتم لهم ما يريدون من خضوعنا لحضارتهم و ثقافتهم خضوعا لا تقوم لنا من بعده

قائمة. (السباعي، 2013، ص. 20) . وهناك شهادات تاريخية تؤكد على وثاقة العلاقة بين الاستدمار (الاستعمار) و الاستشراق.ولعل أبلغ مثالين على ذلك ما قام به عدد من المغامرين والمبشرين،ومن بينهم الضابط الانجليزي توماس إدوارد لورانس،والذي كان أداة مسخرة لسياسة بلاده التوسعية الميكيافيلية. .وكذلك الراهب الكاثوليكي شارل دي فوكو،فإنه يظل،من حيث الإفادات العملية لكتابه استكشاف المغرب قد يس الاستعمار بلا منازع. (حميش، 2011، ص.45 - 53) .

3.3.الدافع التجاري:

يعتبر من الدوافع المهمة التي كان لها أثرها في تنشيط الاستشراق؛حيث رغب الغرب في التعامل مع الشرق الإسلامي لترويج بضائعهم،وشراء الموارد الخام بأبخس الأثمان،وللقضاء على الصناعة المحلية التي كان لها مصانع قائمة مزدهرة في مختلف بلاد العرب والمسلمين. (السباعي، 2013، ص. 21).

4.3 . الدافع العلمي:

أقبل نفر قليل من المستشرقين على الاستشراق بدافع من حب الإطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها،وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأ في فهم واستيعاب الإسلام وتراثه،لأنهم لم يكونوا يتعمدون قلب الحقائق والدس والتحريف،فجاءت دراساتهم وأبحاثهم أقرب إلى الإنصاف و إلى منهج البحث العلمي التاريخي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين،بل هناك من اهتدى إلى الإسلام وآمن برسالته. على أن هؤلاء لا يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يعكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وصدق وإخلاص ؛ لأن أبحاثهم المجردة عن التحيز و الهوى، لا تلقى رواجا،لا عند رجال الدين،ولا عند رجال السياسة،ولا عند عامة الباحثين،ومن ثمة فهي لا تدر عليهم أرباحا،ولهذا ندروجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين . (السباعي، 2013 ،ص. 22- 23).

4. مناهج المستشرقين في دراسة فترة تاريخ صدر الإسلام " السيرة النبوية الشريفة" :

على الرغم من تطور الدراسات الاستشراقية الخاصة بتاريخ الإسلام وتراثه الحضاري تطورا ملحوظا خلال القرن الحالي فإن هذه الدراسات في غالبيتها لا تزال متسمة بالعمومية والنظرة الأحادية ذات البعد الواحد ومتأثرة بأحكام تعسفية مسبقة متحيزة،فليس هناك ثمة فائدة مرجوة من كتابة البحوث المطولة،وتطعيمها بالحواشي المرصوصة بالعديد من المصادر دون أن يكون لتلك البحوث قيمتها المتوخاة في رسم صورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة . و بناء على هذا فإننا سنعالج مناهج المستشرقين في دراسة صدر الإسلام وسنبدأ بفترة السيرة النبوية.

1.4 منهج الانتقاء في استعمال المصادر:

لا ريب أن فعالية و نجاعة المنهج المتبع في أية دراسة تتوقف على قيمة وطبيعة المصادر والروافد المعتمدة،إذ هي القاعدة المغذية والمادة الخام التي ترتكز عليها الدراسة،فكلما كانت المصادر أصيلة ورئيسة وذات علاقة مباشرة بالموضوع،كانت الدراسة أقرب إلى حصول المراد المنشود،والمبتغى المقصود للباحث. وفي إطار البحث التاريخي الاستشراقي يتبين أن المنهج المتبع في انتقاء وتحيز المصادر

المعينة على بحث الموضوعات المرتبطة بتاريخ صدر الإسلام يتنوع ويختلف تبعا لطبيعة الموضوعات المطروقة من جهة ،ولمدى موضوعية المستشرق وأمانته العلمية أو حياده على الأقل في توظيف تلك المصادر و النقل عنها من جهة ثانية. ومن بين الملامح البارزة في البحث الاستشراقي أن كثير من المستشرقين يرجع في دراسته للإسلام إلى ما كتبه غيرهم من المستشرقين المعادين للتاريخ الإسلامي ، ويجعل كتاباتهم وآراءهم المصادر المعتمدة،فهو ينقل عن ما كتبه المستشرقان موير(William Muir) وجولد زيهر(Ignaz Goldziher)، وجوزيف شاخت (Joseph Franz Schacht) وغيرهم .

2.4 المبالغة في الشك واعتقاد أمور، وتكوين آراء وافتراضات مقدما ثم التماس التأييد لها:

إن من أبرز مقتضيات البحث العلمي النزيه أن يبدأ المرء في بحثه لأمر ما و هو خالي الذهن من أحكام مسبقة،ثم يكون آراءه من خلال ما تجمع لديه من أدلة ومعطيات،فيستخلص النتائج من المقدمات،أما المستشرقون فقد خالفوا هذا المنهج واختاروا لأنفسهم منهجا مغايرا في الدراسات التاريخية المتعلقة بالتاريخ الوسيط،حيث يقومون بالاعتقاد قبل الدليل،والاستنتاج قبل المقدمات،فيكون في ذهن أحدهم فكرة مسبقة،ثم يحاول جاهدا أن يلتمس لها الحجج والبراهين،ولو أدى هذا المنهج إلى تشويه الحقائق،أو بتر النصوص أو تأويلها إلى معنى مرجوح،أو استخدام أي وسيلة تخالف منهج البحث العلمي. ويكاد يكون هذا الملمح الأساسي - أي ملمح المبالغة في الشك والافتراض - قاسما مشتركا أعظم بينهم جميعا،حيث إنهم يمضون مع شكوكهم إلى المدى،ويطرحون افتراضات لا رصيد لها من الواقع التاريخي،بل إنهم ينفون العديد من الروايات و الوقائع وفي المقابل يتشبثون بكل ما هو ضعيف شاذ. (خليل،2005، ص. 24) . ومن بين أبرز النماذج التطبيقية نذكر مايلي:

1.2.4 . شبهات حول ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبه ونشأته :

تحدث لويس عن ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبه وحياته الأولى قبل البعثة ، حيث يرى بأن النبي قد ولد في مكة بين سنة 570 م و 580 م لعائلة من بني هاشم القرشية المشهورة بالرغم من أنها لم تكن من الطبقة الحاكمة،أما عن نسبه صلى الله عليه وسلم فيرى لويس أن ما عرف عن هذا النسب كان قليلا،وكذلك ما عرف عن طفولته،وحتى هذا القليل تضاءلت قيمته أمام الدراسات الغربية التي وضعت السنة موضع الفحص لذلك فيقول لويس ومن المحتمل أنه عاش يتيما تحت كفالة جده لأبيه،وفي حديث لويس عن شبابه صلى الله عليه وسلم ذكر أنه صلى الله عليه وسلم عمل في التجارة ولكن هذا الأمر حسبه محتمل وليس أكيدا.ومن الواضح أن هناك قواسم مشتركة بين برنارد لويس وهاملتون جب حيث اعتبر هذا الأخير أن المعلومات الأكيدة حول حياة محمد صلى الله عليه وسلم وظروفه المبكرة قليلة جدا،ويضيف جب بأن كل ما قيل عن نسبه صلى الله عليه وسلم أو حياته الأولى؛لا يشير إلى عظمته فيما بعد ،أما فيما يتعلق بشبهة عدم تحديد سنة ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم فمن الواضح أيضا أن لويس قد استمدها من مصادر استشراقية أيضا سابقة ،فقد سبق لامنس وكارل بروكلمان أن عبروا عن الآراء نفسها،ولاشك في أن هدف هؤلاء المستشرقين جميعا

خطير ،وتأتي خطورة الأمر في الاضطراب في تاريخ ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم يؤدي إلى نتائج تاريخية خطيرة،فلو قلنا فرضا،أن تكون ولادته سنة 580 فيكون سنه حين جاءه الوحي ثلاثين سنة،وهذا مدعاة للشك في نبوته،وفي الاعتقاد بأن الأنبياء يبعثون في سنة الأربعين،بالإضافة إلى هذا فتأخير سنة ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم معناه تأخير حوادث التاريخ الإسلامي عشر سنوات،وإحداث إرباك وخلط شديد في ترتيب حوادث السيرة والخلافة الراشدة والعصور الإسلامية التالية . (مطبقاني،2018،ص. 114 -115). ولقد حسمت كتب الحديث الصحيحة زمن ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه كان في عام الفيل الذي كان في عام 570أو 571 م،حيث ورد ذلك في سيرة ابن هشام وفي المستدرك للحاكم ،وفي غير ذلك من كتب التواريخ العامة،ويقول أكرم ضياء العمري بعد دراسة هذه الروايات بأنه قد ذهب معظم العلماء المسلمون إلى القول بمولده عام الفيل،وأيدتهم الدراسات الحديثة التي قام بها باحثون مسلمون ومستشرقون الذين اعتبروا عام الفيل موافقا للعام 570 أو571 م.(العمري،1994، ص.97).

2.2.4 رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء:

حاز موضوع الفتح الإسلامي اهتماما كبيرا من المستشرقين،وخصوصا من المستشرق البريطاني المعاصر برنارد لويس،ولم يكن هذا الأخير بدعا من ذلك،ولعل جذور الفتوحات الإسلامية تكمن في الرسائل التي بعثها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء داخل الجزيرة العربية وخارجها،ويقف لويس عند رسالتي الرسول صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وهرقل موقف المشكك فيهما،حيث ذهب إلى أنه قد اختلف العلماء فيما إذا كان محمدا صلى الله عليه وسلم قد فكر في فتح الإمبراطوريتين وإدخالهما في الإسلام،على أنه ما من شك في أنه بدأ العمليات التي من شأنها تحقيق ذلك إلى حدٍ كبير. ويكرر هذا الرأي بأن إرسال هذه الرسائل هو الآن وبصفة عامة مرفوض،وتعد من الكتابات السرية الغامضة،ولكنه مثل كثير من الأمور السرية في التاريخ الإسلامي المبكر يعكس تقويما دقيقا إلى حد ما لوضع سياسي معين من شخص أو حزب معين في وقت ما.هذه الأسطورة تعبر عن إدراك المسلمين المبكر بأن القوتين الرئيستين اللتين تقفان في وجه توسع العقيدة الجديدة خارج أرضها هما الإمبراطوريتان الفارسية والبيزنطية. (مطبقاني،2018، ص. 139-140).

وقد نقل لويس هذه الأفكار حول التشكيك في إرسال الرسل إلى الملوك والأمراء،وبخاصة إلى هرقل وكسرى عن المستشرق كايتاني ومونتغمري وات وغيرهما،وإن كان وات لا ينكر وجود الرسل،ولكنه يشكك في وقتها وعددها. (مطبقاني،2018، ص. 140). وبالرغم من هذا التشكيك فإن كتب السنة الصحيحة،تروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن فرغ من صلح الحديبية أصبحت الفرصة سانحة أمامه لنقل الدعوة إلى آفاق العالم تنفيذا لأمر الله عز وجل ، لأنه أرسله إلى كافة الناس بشيرا ونذيرا،و قد ورد من ذلك آيات عديدة منها في سورتي الأعراف وسبأ ،فكتب صلى الله عليه وسلم إلى

قيصر وإلى كسرى، وإلى المقوقس،وإلى النجاشي و إلى ملوك العرب و أمرائهم داخل الجزيرة وخارجها،واختلفت ردود هؤلاء الملوك والأمراء . (مطبقاني،2018، ص. 140 – 141).

أما فيما يتعلق بمصداقية وجود هذه الرسائل ؛فقد ظهرت بحوث ودراسات عديدة تثبت صحة وجود هذه الرسائل،ومن هذه الدراسات ما كتبه الباحث عز الدين إبراهيم مصطفى عن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل،حيث أثبت بالفحوص العملية المخبرية لنوعية الجلد،ولعمره،ولنوع الحبر المستخدم،وقد تمت هذه الفحوص المخبرية في المتحف البريطاني.(إبراهيم و آخرون،1981،ص. 249). كما درس الباحث مازن بن صلاح مطبقاني متن الرسالة وسندها،وتبين له أن الرسالة قديمة جدا،ويزيد عمر الجلد على ألف عام . كما أشار المحقق قاسم السامرائي إلى ما كتبه المستشرق الفرنسي بلين في المجلة الآسيوية عن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس،التي وجدها المستشرق الفرنسي ايتيان بارتليمي في إخميم من صعيد مصر عام 1850م معلنا أصالة الوثيقة،كما ظهرت دراسات لمحمد حميد الله نشرها في دوريات متعددة،ثم جمعها بكتاب أثبت فيها وجود العديد من رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم ومنها رسائل إلى كل من المقوقس،والمنذر بن ساوى العبدي عامل كسرى على البحرين وكسرى. وعلق السامرائي على أسباب إنكار هؤلاء المستشرقين رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ناتج عن منطق مكرور خال من التجرد والموضوعية اللذين يتصف بهما العالم،وعلى مدى اتصاف العالم بهما فإن رأيه مقبول ومعتبر،وإلا فهو مكابر ومرفوض،لا يؤبه برأيه وحكمه المعلول .(مطبقاني،2018، ص. 141).كما أورد حميد الله بعض إجابات من أرسلت الرسائل إليهم مع صور فوتوغرافية لهذه الرسائل. وإنكار لويس لهذه الرسائل ليس مبنيا على أساس من تثبت علمي بعدم وجودها،ولكنه تجاهل تام لهذه الرسائل رغم أن الأدلة على إرسالها وارد في العديد من المصادر،بل إن هرقل حينما وصلت إليه رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم بحث في بلاده عن أحد من أهل مكة ليسأله عن حقيقة الأخبار،وكان ذلك أثناء مدة صلح الحديبية.وهو لقاء ثابت في المدونة الحديثية. (مطبقاني،2018، ص. 142).

3.4 الكذب وعدم تحري الأمانة في النقل في السيرة النبوية :" عرض نماذج استشراقية في لغتها الأصلية " هنري لامنس أنموذجا

يعتبر الكذب و عدم تحري الأمانة في التوثيق من الأخطاء المنهجية والأخلاقية الفادحة التي اتسم بها منهج جمهرة من المستشرقين في الدراسات الإسلامية و خاصة تاريخ السيرة النبوية الشريفة ؛ حيث نرى تعمد الكذب وقلب الحقائق وعكسها،وترك الأمانة فيما ينقلون من نصوص،وذلك محاولة منهم لإثبات آرائهم الفاسدة،ومعتقداتهم السيئة،التي كونوها سلفا قبل الدراسة والبحث. وقد تم انتقاء نماذج استشراقية في لغتها الأصلية من أجل عرضها ونقدها تاريخيا لمناقشة آراء المستشرقين. و يتعلق الأمر بمؤلفات المستشرق البلجيكي الأصل هنري لامنس (Henri Lammens) حول السيرة النبوية. فما هي أبرز مؤلفاته في هذه الحقبة ؟ وبما تتسم من ناحية المضمون؟

كتب المستشرق هنري لامنس كتبا كثيرة تتعلق بصدر الإسلام والتاريخ الأموي والعباسي ، ومن أبرز الكتب الاستشراقية التي تتعلق بالسيرة النبوية التي كتبها كتاب" Fatima et les filles de Mohamed " فاطمة وبنات محمد"، وقد كتبه خلال مدة إقامته بروما مدرسا بمعهد " الكتاب المقدس" (1910- 1914 م) ، وقد تولت هذه المؤسسة نشره مثلما يتضح في الطبعة المعتمدة خلال هذا المقال.

ولقد توجه لامنس في كتاب" فاطمة وبنات محمد" وجهة تخدم تعصبه على الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته، على الرغم من أن كتابه وسمه بعبارة "ملاحظات نقدية لكتابة السيرة" (Lammens,1912 p.07)، ويبالغ المستشرق هنري في نزعة الشك، قاصدا من ذلك التشنيع على سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم (Lammens,1912 ,p.03) ولا نتقول على لامنس إذا قلنا إنه كتب كتابه" فاطمة وبنات محمد" من أجل التشنيع على فاطمة الزهراء، وعلى زوجها علي بن أبي طالب – رضي الله عنهما- حتى أن متصفح الكتاب يندهش مما ضمه من إساءة بالغة لهما.(Lammens,1912 p.11)

وهنا يتساءل الباحث هل كتاب المستشرق هنري لامنس عبارة عن مقدمات نقدية لكتابة السيرة النبوية مثلما ينص العنوان التفصيلي للكتاب (Notes critiques pour l'étude de la s'ira) ؟ و لكن الجواب الموضوعي عن هذا التساؤل الجوهري هو أن الكتاب لم يكن سوى مقدمات عصبية هجائية جارى وشابه فيها لامنس سابقيه من المستشرقين كيوحنا الدمشقي. ويبدو أن لامنس لا يستهدف بهجائه فاطمة لذاتها، وإنما حمل حملة شديدة قاطبة على آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم رضوان الله عليهم قاطبة، و على رأسهم الصحابي علي بن أبي طالب رضي الله عنها (Lammens,1912 p..58) و على هذا النحو يسئ كذلك لامنس إلى أحد صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ألا و هو الصحابي أسامة بن زيد رضي الله عنه ويشبهه بمخلوق عجيب (Monstre)، ويعير رأسه بالسواد (Négresse) (Lammens,1912 , p.103) وكأن لامنس عاصر و رأى أسامة بن زيد رأي العين، وهو لا يذكر مصدرا واحدا يحدد صفته، فلا يجد القارئ المنصف جدوى تاريخية من هذا الأمر.ولم يتورع لامنس في كتاب فاطمة عن ذم العرب في غير موضع، إذ هم حسبه أصحاب أذهان بدائية (Lammens,1912 , p.66)ولا يستشرفون عواقب الأمور(Lammens,1912 , p.35) وتغلب عليهم حسابات المنفعة (Lammens,1912 , p.19) وهكذا اتهم لامنس كتابه بجملة من المساوئ و المثالب لأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

وأدت رغبة لامنس في كتابة سيرة مسيئة للرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى الوقوع في أخطاء تاريخية فادحة، إذ شك في غزوة مؤتة (Lammens,1912 ,p.24-65) وذهب إلى أنها اختلقت في النصف الثاني من القرن الهجري الأول، ولم يستدل لشكه بأية حجة، سوى توجهه إلى طرح ما روي عن استبسال جعفر بن أبي طالب في الحرب، واستشهاده مقبلا! وقد فات لامنس أن أرباب السير

المؤرخين العرب جميعا ذكروا هذه الغزوة، وذكرها المؤرخ البيزنطي تيوفانوس (Théophane) كذلك ضمن أحداث سنة 629 م.(بزاينية،2017، ص84)

ولم يقتصر الأمر على كتاب فاطمة و بنات محمد للمستشرق هنري بل تمادى تحامل لامنس على السيرة النبوية تحاملا شديدا في كتابه الآخر (L'islam; croyances et institutions) ،مدعيا في هذا الأخير أن القرآن وحده هو المصدر الذي يعتمد عليه في بيان سيرة النبي- صلى الله عليه وسلم – (Lammens,1943 p.39-40) و أن كتب الأحاديث كلها موضوعة من أجل تحقيق غايات معينة هي تمجيد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو بهذا الإدعاء لم يجعل لكتب الحديث و كتب السيرة النبوية أي وزن ، كما أنه لا يقدم أي حجة نقلية أو دليل عقلي، ولا يرجع إلى مصادر أخرى عن السيرة، بل هو يلقي كلاما جزافا و يعتمد على تحكمات ذهنية استقرت حسب معان ذهنية سابقة. (بدوي،2015، ص 504)

و للتعقيب على دعوى اعتماد المستشرق لامنس بصفة عامة على القرآن الكريم وحده في كتابة السيرة النبوية يمكن القول بأن الاعتماد على القرآن الكريم في هذا المجال يمكن أن يعد سلاحا ذا حدين، و يتجسد الحد السلبي بنفي الكثير من الحوادث في السيرة النبوية الشريفة ما دامت لم ترد في القرآن الكريم ، وكأن القرآن كتاب تاريخي خاص بتفاصيل حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا مكمن من عملية انتقاء مغرضة ذات طابع هدمي معاكس ، وهي التشكيك أو نفي كل رواية لم ترد مؤيداتها في القرآن ، ولا سيما إذا كان في هذه الرواية تمجيد للنبي صلى الله عليه وسلم ،أو كان في نفيها تأكيد لإحدى وجهات النظر الاستشراقية.(خليل، 2005، ص.25).

ومن الملاحظات النقدية المهمة المتعلقة بالتعقيب على منهجية التوثيق للمستشرق هنري لامنس، والتي ظهرت في كتابه فاطمة وبنات محمد هو أن لامنس كان يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها ، وعند مراجعة معظم هذه الإشارات و الإحالات التي أحال إليها ، اتضح – حسب عبد الرحمان بدوي – أن لامنس يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقا في هذه الكتب، أو يفهم النص فهما ملتويا مخالفا للصواب، أو يستخرج استنتاجات بتعسف شديد يدل على فساد الذهن ودسيسة في النية. ولهذا ينبغي ألا يعتمد القارئ على إشاراته إلى المراجع، فإن معظمها تمويه وكذب وتعسف في فهم النصوص، ولا أعرف باحثا من المستشرقين المحدثين بلغ هذه المرتبة من التضليل، وفساد النية. (بدوي،2015، ص. 504).

ولا يمكن فهم أعمال هنري لامنس بمعزل عن ظرفه التاريخي كذلك، إذ كان المستشرق هنري لامنس ملحقا بجامعة بيروت إبان الحرب العالمية الأولى، فشهد حرب الشريف حسين زعيم الثورة العربية الكبرى سنة 1916 م على السلطة الفرنسية بالشام، ورمزها القائد الكاثوليكي غورو (Général Gouraud) فمزج بين الماضي و الحاضر، إذ عد الشريف حسين سليل " الصحابي " علي بن أبي طالب–رضي الله عنه- ، وليس العرب الذين هاجموا السلطة الفرنسية الكاثوليكية بالشام سوى

مخربين للعمران جبناء وأدعياء. (بزاينية، 2017، ص83). ولقد أقر وتأسف المستشرق الفرنسي إميل درمنغم لما آلت إليه كتابات لامنس من تشويه وإفساد،نظرا لكرهه للإسلام ونبي الإسلام . (درمنغم،2005،ص.13- 14).

ونستنتج من عرض هذه النماذج الاستشراقية المتعلقة بالسيرة النبوية ، والتي ألفها المستشرق هنري لامنس أن صفة التعصب و مجافاة الموضوعية هي محل اتفاق في تعقيبات الباحثين المسلمين و أساطين المستشرقين ومنهم المستشرق درمنغم. كما تجلى لنا تأثير البيئة الكنسية التي نشأ فيها المستشرق هنري لامنس.

4.4 . الاعتماد على الأساطير والخرافات الشائعة :

هناك من المستشرقين من لم يكن له مرجع في الكتابة عن السيرة النبوية إلا الأساطير والخرافات الشائعة في أوربا خلال العصور الوسطى ،وتاريخ الحركة الاستشراقية مكتظ بعشرات بل مئات الخرافات والأساطير التي نسجت حول الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم،وخاصة في العصر الوسيط،وهي أساطير لا يمكن أن يكون لها ظل من الحقيقة ولا أثر من جود إلا في عقول مخترعيها،لاسيما في ذلك العصر. وقد عرض المستشرق بفانموللر في كتابه موجز أدب علوم الإسلام لطائفة من تلك الأساطير والخرافات التي سادت في القرون الوسطى،وظلت بصماتها وآثارها تسري في الاستشراق المعاصر. ومن أبرز تلك الخرافات والأساطير التي كانت منتشرة القول بأن المحمديين لم يكونوا يجلون محمدا لمجرد كونه نبيهم ومؤسس دينهم،بل كانوا يعبدونه بوصفه يمثل الألوهية،وبالإضافة إلى ذلك وصف دين محمد – على النقيض تماما من الحقيقة التاريخية- بأنه دين الشرك،وتعدد الألوهية،وقد اتهم المحمديون أيضا - دون سند تاريخي –بأنهم يمارسون عبادة التماثيل بطريقة فظة . ثم يقرر بفانموللر أن البيزنطيين هم أول من أذاع في الغرب معظم الأساطير عن محمد والإسلام،وعنهم أخذ الغرب تلك الأساطير. ومن تلك الأساطير الجنونية والخرافات المضحكة التي ذكرها بفانموللر أيضا تلك التي تتعلق بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم،فالخنازير –في منظور الأسطورة – قد التهمت النبي صلى الله عليه وسلم و هو في حالة سكر! ولهذا السبب أصبح أكل لحم الخنزير محرما لدى المحمديين. وهناك الخرافة التي انتشرت انتشارا واسعا في العصر الوسيط،والتي تقول بأن محمدا كان في الأصل كاردينالا رومانيا يسعى للحصول على تاج البابوية ،ولكنه عندما فشل في الحصول عليه أسس طائفة المحمدية،وصرف آلافا كثيرة من النفوس عن المسيحية.(علي محمد،2013، ص. 165-166).

5.4. انتقاء المثالب وتضخيمها وإهمال الحقائق المنصفة :

كرس جمهور المستشرقين جهودهم للبحث عن مثالب يتخيلونها،أو زلات وسقطات حدثت في التاريخ الإسلامي،يعرضونها ويضخمونها،بينما يهملون الحديث تماما عن الإيجابيات ويتحاشون ذكر الحقائق المنصفة،أو يذكرونها ويحقرون من شأنها،ويحطون من قدرها، فتبدو صورة الإسلام في نظر القارئ

سوداء شائهة . وقد كتب الباحث حسين مؤنس دراسة تتضمن عرضا وتحليلا ومناقشة للفكر الاستشراقي من واقع ما كتبه المستشرقون،واختار كتابا للمستشرق الفرنسي جاستون فييت بعنوان مجد الإسلام ، وقد تبين من خلال الدراسة بما لا يدع مجالا للشك والريبة حقيقة شرذمة من المستشرقين ،وأنها مجافية للمنهج العلمي،وتجلى من خلالها هذا النهج الخاطئ و هو انتقاء المثالب و ترك المعالم المشرقة و الحقائق الناصعة . فلقد اعتمد جاستون فييت على تشويه الحقائق وتزييفها ،وانتقى ما رأى أنه نقائص،ووضعها تحت المجهر ،بينما أغفل جاهلا أو متجاهلا الصفحات المشرقة من تاريخ الإسلام .(علي محمد،2013، ص. 157- 158) .

5. التاريخ الأموي والدراسات الاستشراقية :

غالبا ما وقع المستشرقون الذين عالجوا التاريخ الأموي في الخطأ بسبب التعميم فهم يعممون ظاهرة أو سياسة خليفة أو وال على كل العصر الأموي ،ومن هنا جاء تعميم فلهاوزن في حكمه حين زعم أن الأمويين كلهم لا يصلحون لقيادة الأمة المحمدية . وهناك فئة من المستشرقين تلهث وراء المتشابه من الروايات التاريخية ابتغاء الفتنة،وابتغاء تأويل وقائع التاريخ الإسلامي وفق ما يروق لها،ويخدم أهدافها،وحين لا ينطلي تشويههم للسيرة النبوية على أحد لتواتر أخبارها واتفاق العديد من الروايات حولها،فإن العهد الأموي ليس كذلك . فقد أعانتهم رواية الشعوبية وغيرهم ينتقون منها ما يريدون،خاصة إذا تذكرنا أن التاريخ الأموي كتب خلال فترة حكم العباسيين،حيث غير بعض الرواة الحقائق أو بدلوها وصوروها على غير صورتها،أو طمسوها وأضافوا لها افتراءات جديدة إلى سيرهم وانجازاتهم ، ويعتبر كتاب المستشرق الألماني فلهاوزن الموسوم بالدولة العربية وسقوطها،ثم كتابه الآخر الخوارج والشيعة نلحظ أن أشهر من تعمق في التاريخ الأموي من مخضرمي القرنين 19 و20 م،ونقل إلينا المستشرق بيكر مقارنة طريفة بين فلهاوزن ولامنس فيما يتعلق بدراساتهم حول تاريخ بني أمية،ولاحظ المستشرق بيكر أن لامنس رغم حذقه فقد فشل فيما نجح فيه فلهاوزن ،فكتابات الأول مجرد هيكل نصوص لا روح فيها،أما كتاب فلهاوزن فهو بناء ضخم،ولامنس يلوث شخصياته التي يتكلم عليها جزءا جزءا ولكنه يقع على اللون غير الصحيح،أما فلهاوزن فهو ينحت شخصياته من الحجر الأصيل. (فوزي،1998،ص 94- 95). ومن أهم المحاور التي كانت مثار انتقاد لأعمال المستشرقين ذات الصلة بالتاريخ الأموي هي التأكيد على عامل واحد في تفسير الوقائع التاريخية،وتركيزهم على النزعة العرقية العنصرية للخلافة الأموية ،والفتن والحروب الأهلية وشيوع العصبية القبلية،و لا ننسى اهتمام المستشرقين بمسألة الفتوحات و ما يسمى بالنزعة المادية للمقاتلة .

وعند شرح المحاور نقول أنه من أهم المؤاخذات المنهجية على كتابات المستشرقين المتعلقة بالتاريخ الأموي،يلاحظ الباحث تأكيد فلهاوزن على العامل السياسي،حيث كان يعتقد بأن للتاريخ السياسي قوة ديناميكية ذاتية تكفي لتفسير التطور،ولكن التأكيد على عامل واحد على أهميته لم يعد من المسلمات التي يتفق عليها المؤرخون مع فلهاوزن،أما المستشرق هنري لامنس فقد كان العامل الطائفي المحرك

الفعلي لدراساته مع تأكيده على الدافع الاقتصادي أيضا.وهكذا بدا المستشرقون وكأنهم يختارون اللون الذي ينسجم مع ثقافتهم وبيئتهم ليصبغوا به دراستهم عن الأمويين. وتأثر بعض المستشرقين بالنزعة العرقية التي شاعت في أوربا بتأثير كوبينيو وغيره، وكذلك بما شهدوه في تاريخهم من صراع دموي بين القوميات ففسروا التاريخ من خلال تجربتهم الذاتية.فذهب بعضهم إلى القول بأن الدولة الأموية دولة عربية لا يعنيها إلا أمر العرب في المجتمع الإسلامي ، وهذا ما قرره فلهاوزن عندما ذهب إلى أن الأعاجم حققوا الحرية لأشخاصهم بدخولهم الإسلام،لكنهم لم يصلوا إلى درجة التمتع بالحقوق المدنية كالمواطنين،ولا بالحقوق العسكرية ومزاياها المادية،ولم يكن الإسلام كافيا في ضمان المساواة لهم،ذلك لأن الدولة الثيوقراطية الإسلامية كانت في واقع الأمر دولة عربية خالصة،دولة العرب التي جعلتهم فوق الأمم المغلوبة. ويؤكد فلهاوزن رأيه في مكان آخر فيقول وكان بنو أمية في الواقع يمثلون سيادة الأمة العربية لا سيادة الإسلام،و للرد على هذا القول، لابد من التنبيه على أنه يحتوي على شقين :الأول منهما عروبية الدولة باعتمادها على العرب ،والآخر سياستها العنصرية،فأما اعتماد دولة الإسلام منذ سقوطها على العرب،فأمر طبيعي لا غبار عليه،لأنها نشأت بينهم،وكانوا مادة الإسلام وعليهم اعتمد في الانتشار ،ولابد أن تمر فترة من الزمن قبل أن يندمج القادمون الجدد من غير العرب في المجتمع الجديد وحينذاك يشاركون العرب،فليس في الأمر تحاملا أو عنصرية،بل من الطبيعي أن يكون عصر الأمويين عصر العرب أكثر من غيرهم بسبب سنة الزمن والتطور التاريخي للأمة الجديدة وكيانها السياسي . ورغم أن الأمويين لم يتحاملوا على الموالي ولم تكن هناك سياسة رسمية تناهض غير العرب،فإن في يد الأمويين أكثر من مسوغ لو اعتمدوا على العرب فالقوة العسكرية الضاربة لازالت في يد المقاتلة العرب.ولا بد من التنويه إلى وجود عناصر من الموالي تناهض الدولة الإسلامية،وتقوم مع كل فتنة تبغي تمزيق الشمل،والتاريخ سجل بأن الموالي الذين لم يشاركوا في الفتنة كانت لهم من الحقوق مثل ما كان للعرب وامتزجوا بالعرب امتزاجا لا تفريق فيه. وفي المحور الآخر تصور فئة من المستشرقين العصر الأموي تصورا دمويا،وتصبغه بصبغة الحرب المستمرة،متناسية أو مهملة انجازات الأمويين الإدارية والسياسية والحضارية،كما أن المستشرقين لا يعزون انتصار العرب المسلمين إلى أي عامل ايجابي قوة المعنويات بسبب عقيدة الجهاد والإيمان ،أو الشجاعة والصبر والمهارة في القتال ،بل نراهم يعزونها إلى الفرقة والخذلان لدى الطرف الآخر. ولا ننس تركيز المستشرقين على تشويه شخصيات التاريخ الأموي دون تمييز وأسلوب تعميمي صارخ،ومن بينهم هشام بن عبد الملك ،وعمر بن عبد العزيز ،حيث أنكر المستشرقون على هذا الأخير أحسن صفاته التي ميزته وهي العدالة حيث يرى فلهاوزن إن عمر بن عبد العزيز لم يعد سمرقند لأهلها مع أنه اعترف أن العرب استولوا عليها خلافا لما يأمر به الدين ،ويؤيد ذلك المستشرق فان فلوتن مدعيا أن المسلمين استخدموا وسائل خبيثة للسيطرة على المدينة والاحتفاظ بها.(فلهاوزن، 1968، ص. 259- 302). بينما تشهد وقائع التاريخ أن حكم عمر بن عبد العزيز كان بانسحاب الجيش الإسلامي من المدينة ولكن أهل المدينة بعد أن اعتادوا على الحكم

الإسلامي،وما حققه لهم خلال تلك المدة طلبوا البقاء ضمن دار الإسلام اختيارا منهم.(فوزي،1998، ص. 100).

6. التاريخ العباسي في منظور الاستشراق الغربي المعاصر :

اهتم الاستشراق الغربي الحديث والمعاصر بالتاريخ العباسي،ويمكن استعراض أهم الآراء الاستشراقية في هذه الحقبة في المحاور التالية :

1.6 الدعوة العباسية :

درس بعض المستشرقين الأوربيين خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلادي الدعوة العباسية التي أنهت الخلافة الأموية 132 هـ / 749 م،فلم يسعهم إلا أن،يطبقوا الأفكار السائدة في أوربا خلال القرن التاسع عشر ،وهي مفاهيم الصراع العنصري بين القوميات الأوربية والفكرة العنصرية.ومن هذا المنطلق صور الاستشراق الدعوة العباسية على شكل نزاع بين"الأسياد العرب"وبين"الفرس المحكومين" وكان من رواد هذا التفسير المستشرقان ويل في كتابه تاريخ الخلافة،ونولدكه في كتابه مقتطفات من تاريخ الشرق،وأسهب في هذا التفسير كل من المستشرقين فان فلوتن و فلهاوزن حيث اعتبرا الدعوة العباسية ثورة فارسية ضد الحكام العرب المتسلطين،أما سببها فلم يكن إلا نتيجة الأخطاء التي وقع فيها الحكام العرب الذين فشلوا في معاملة الشعوب الخاضعة لهم معاملة حسنة،فأدى ذلك إلى انبعاث القومية الفارسية سلاحا ذاتيا للشعب الفارسي المضطهد.والخطأ الذي وقع فيه كلا المستشرقين فان فلوتن وفلهاوزن هو أنهما نظرا بمنظار عرقي ضيق إلى طبيعة الدعوة العباسية؛فلم يحاولا فهم وضع القبائل العربية في خراسان،ومثلهما كمثل المؤرخ الذي يؤمن بنظرة معينة،ثم يحاول أن يجمع مادته ليثبت تلك النظرة،والخطأ في البداية يقود إلى الخطأ في النتيجة.(فوزي، 1998، ص. 142).

2.6 العصر العباسي الأول :(132هـ/ 232 هـ)

روج المستشرقون للرأي القائل بأن العصر العباسي الأول هو عصر النفوذ الفارسي،وهذا أمر طبيعي وحتمي من وجهة نظرهم،فإذا كانت الثورة العباسية قد قامت على أكتاف الفرس،فإن العصر العباسي الأول هو عصر سيطرة الفرس الذين جاؤوا بالعباسيين إلى السلطة،حيث يقول المستشرق بيكر إن انتصار العباسيين معناه انتصار الفرس ويرى فلهاوزن إن حكم العرب انتهى بمجيء العباسيين وأن الفارسية انتصرت على العربية تحت ستار الأممية الإسلامية. وفي رأي الباحث الناقد عمر فاروق فوزي أن هذه التخريجات التي كانت ولا تزال شائعة بين أوساط المستشرقين ومن قلدهم من مؤرخينا العرب والمسلمين مبالغ فيها،حيث إن طبيعة الحوادث خلال العصر العباسي الأول وسياسات الخلفاء العباسيين لا يمكن أن ترضى لنفسها هذا التفسير الاستشراقي العنصري.فسلطان العرب كما تشير الوقائع لم ينته بزوال الدولة الأموية بل إن العرب كانوا القوة الفاعلة والضاربة في عملية التغيير ،وظل العرب خلال العصر العباسي الأول متقلدين مناصب رئيسة في الدولة.وبقيت القبائل العربية

ذات أثر بارز في السياسة والجيش والمجتمع. وظلت اللغة العربية لغة الإدارة والسياسة والثقافة والفكر،كما أن الروايات التاريخية تكشف لنا عن مدى ميل الخلفاء العباسيين للعروبة فكرا وقيما وتقاليد. (فوزي، 1998،ص. 145) . و يرى الباحث -المتخصص في العصر العباسي- عبد العزيز الدوري أنه على رغم صحة أقوال أن دولة بني العباس أعجمية خراسانية،ودولة بني مروان أموية عربية ،وبأن المسعودي أنه باستخدام العباسيين الموالي سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها. ولعل هذه الأقوال صحيحة في أساسها،ولكنها متطرفة على ما يرى الباحث العراقي القدير عبد العزيز الدوري،فمن المبالغة أن نقول أن سلطان العرب قد انتهى بسقوط الأمويين،فالخلفاء العباسيون كانوا عربا هاشميين (من جهة الأب على الأقل)وكانوا يعتزون بنسبهم ويعتبرونه أكبر مناقبهم،ومع أنهم قربوا الفرس،إلا أنهم سيطروا عليهم،فنكلوا بهم حين شعروا بتعاظم نفوذهم،كما فعل أبو العباس بالخلال،والمنصور بأبي مسلم الخراساني،والرشيد بالبرامكة،والمأمون بالفضل بن سهل. وقد أعطيت بعض المناصب المهمة كالوزارة إلى الفرس ،ولكن عددا كبيرا من الولاة كانوا عربا في العصر العباسي الأول،فسلطان العرب لم ينته بسقوط الأمويين،وإن زالت سيادتهم على العناصر المختلفة في الدولة. (الدوري،2012،ص.51 – 52) .

3.6 حركة القرامطة في منظور المستشرقين برنارد لويس أنموذجا :

اتصفت حركة القرامطة في نظر لويس بالتحررية غير العادية،وقد ناشدت هذه الحركة جميع الفرق والأديان والطوائف بالحركة الفكرية والعدالة الاجتماعية،ويعتقد لويس بأن من الصعب تحديد فلسفتها بدقة؛حيث إن معظم المصادر المتاحة سنية،وبالتالي معادية لها بعنف ،وتميل إلى إساءة تفسيرها،أو مصادر شيعية تعود إلى فترة متأخرة حيث تعرضت هذه العقائد إلى تغيرات رئيسة،و يرى برنارد لويس أنه من الواضح أن عقائد القرامطة هي من النوع المثالي العقلاني الذي يدرك نسبية الأديان،وترفض الشريعة الإسلامية الرسمية،وتؤسس قاعدتها على نظام من العدل والتسامح و المساواة الكاملة،وبنظام بارع في التفسير عرف بالتأويل،و ذكر لويس أن هذه الحركة امتلكت قوة تعليمية عظيمة ميزت نفسها بإنشاء المدارس والجامعات،التي من أبرزها الجامع الأزهر ،وقيامها بعمل موسوعي هو ما يطلق عليه برسائل إخوان الصفا. أما بخصوص الرد على ما كتبه لويس حول القرامطة فأول ملاحظة تبرز هنا إطلاق لويس للمصطلحات الحديثة على هذه الحركة ،مثل التحررية و الدعوة إلى الحرية الفكرية ،والعدالة الاجتماعية،وهذه من الإسقاطات،حيث لا يصح إطلاقا إسقاط نعوت معاصرة على حركات تاريخية قديمة،ولو افترضنا جدلا صدق لويس في أن المصادر السنية أساءت تفسير الحركات الباطنية،فهل أفعال هؤلاء أيضا لا يمكن تصديقها؟ إن لويس يحتج بأن المصادر السنية لا يمكن اعتمادها و أن المصادر القرمطية أو غيرها ليست متوفرة،فمن أين للويس الحكم مثلا على عقائد القرامطة بأنها من "النوع المثالي العقلاني"؟ فأي عقلانية هذه التي تجعل لكل

شيء ظاهرا وباطنا . (مطبقاني،2018،ص 94 – 97).وأين التسامح والمساواة الكاملة حين هجم هؤلاء القرامطة على مكة 317هـ/ 929 م ،وقتلوا الحجاج مع أهل مكة واقتلعوا الحجر الأسود من الكعبة. وبالتالي نلحظ إغفال للمصادر التاريخية التي أرخت لكثير من السلوكات السلبية لفرقة القرامطة،ومنها على سبيل المثال البداية والنهاية للحافظ ابن كثير. (ابن كثير، 2015، ج12،ص. 82- 85).

خاتمة :

وفي خاتمة الورقة البحثية نورد تلخيصا لما ورد في مضمون البحث،حيث قمنا بمعالجة أسس الدراسات التاريخية الاستشراقية المتعلقة بتاريخ صدر الإسلام والدولة العباسية من خلال خطة بحثية أولها ماهية الاستشراق،ثم نشأته، فدوافعه المختلفة حسب الأهمية،وبعد ذلك عرجنا على أهم الأسس التي انطلق منها رواد المدارس الاستشراقية في تفسير ودراسة وقائع التاريخ الإسلامي ومن أبرزها المبالغة في النفي والشك والافتراض ، و كذا الاعتماد على الخرافات و الأساطير السائدة في أوربا الوسطى،كما تم التطرق وبإيجاز إلى رؤية المستشرقين إلى فترتين مهمتين هما التاريخ الأموي والتاريخ العباسي مركزين على نموذجين مهمين أولهما يوليوس فلهاوزن ، والآخر هو برنارد لويس .

و بخصوص الإشارة إلى أبرز النتائج المتوصل إليها، فقد توصلنا إلى أن هناك حواجز تحول دون فهم واستيعاب المستشرق لكثير من المحطات التاريخية أبرزها الحاجز العقدي،واللغوي، والمنهجي. وأكدت الدراسة على أهمية المراجعات النقدية للدراسات الاستشراقية؛فهي ضرورة علمية،ومطلب ملح في الأوساط الأكاديمية المتخصصة. كما أننا لاحظنا جليا أن ملمح التعميم أحد الأساليب التي انتهجها المستشرقون في دراسة التاريخ الأموي . ولا ننس أن التركيز على النزعة المادية للفاتحين المسلمين وإهمال القيم الإسلامية السمحة في الفتوحات الإسلامية هي أبرز ما حاول بعض المستشرقين المتحاملين إضفاءه على التاريخ الإسلامي الوسيط بغية تشويهه . ولا يمكن التغاضي عن نتيجة مهمة خلص إليها البحث وهي أن شبهة اضطهاد الموالي في العصر الأموي من أبرز الثغرات الاستشراقية التي حاول المستشرقون الولوج منها للطعن في تاريخ الدولة الأموية و لكن تصدى الباحث المختص عمر فاروق وبين تهافت تلك الشبهات والدعاوى . و هناك مؤشر مهم في تقييم كثير من الآراء الاستشراقية ألا وهو أثر المحاضن الدينية على غرار الأديرة والكنائس في توجهات المستشرق ،فغالبا من شكلت هذه المحاضن خلفية للانطلاق في الدراسة وإطلاق الأحكام ، وأبرز شاهد على ذلك المستشرق البلجيكي الأصل الفرنسي الجنسية هنري لامنس.

و في الختام يحسن بنا تقديم جملة من الاقتراحات التي تخص الموضوع،ومنها ضرورة مد جسور التواصل الفعال والبناء مع الغربيين المنصفين تعزيزا لحوار الحضارات المثمر،عبر آليات القول اللين و الحكمة و بالتي هي أحسن؛ فالحوار و المناظرة أحسن وسيلة لتلاقح الأفكار. كما أنه لابد من العمل على سد ثغرة قلة الدراسات النقدية الاستشراقية في التاريخ الوسيط عبر تسخير جملة من الأقلام

التاريخية المتخصصة في مقالات علمية محكمة من خلال أعداد مستقلة، تصدر في مجلات رصينة على غرار مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية الرصينة لجامعة محمد بوضياف بالمسيلة . كما أن الحاجة ملحة إلى عقد الأيام الدراسية والندوات والمؤتمرات الوطنية والدولية لمناقشة جدوى الدراسات الاستشراقية في الدراسات ذات الصلة بالتاريخ الإسلامي في عصره الوسيط. وكذا مواكبة إنتاج المستشرقين المتمثل في دائرة المعارف الاستشراقية بانجاز علمي عربي إسلامي أصيل، و ليكن على سبيل الاقتراح عنوانه **معلمة التاريخ الإسلامي** الوسيط ؛و تتضمن جملة من المواد العلمية المتصلة بتاريخ الإسلام وحضارته.

المراجع :

1) أسد، محمد. (1987) .الإسلام على مفترق طرق.ترجمة عمر فروخ .لبنان : دار العلم للملايين.
2) بدوي، عبد الرحمان.(2015) .موسوعة المستشرقين.ط05. لبنان. المؤسسة العربية للدراسات.
3) بزاينية،حسن.(2017).نقد مقدمات الأب لامنس النقدية لكتابة السيرة النبوية،دراسات استشراقية.العدد 11.ص 71-94 .
4) حميش ،بنسالم(2011) . العرب والإسلام في مرايا الاستشراق.ط01 . مصر: دار الشروق .
5) خليل ،عماد الدين. (2005) .المستشرقون والسيرة النبوية.ط01 .لبنان: دار ابن كثير.
6) درمنغم ،إميل.(2005) . الشخصية المحمدية ،ترجمة عادل زعيتر. ط03 . مصر : الشعاع للنشر
7) الدوري،عبد العزيز.(2012). العصر العباسي الأول.ط 03.لبنان:مركز دراسات الوحدة العربية.
8) زقزوق،محمود.(1997).الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري.ط01.مصر:دار المعارف.
9) السامرائي،قاسم.(1983).الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية.ط01.السعودية:دار الرفاعي.
10) السباعي، مصطفى. (2013). الاستشراق والمستشرقون.ط 04 . مصر: دار السلام.
11) طاع الله، محمد. (2016). خصومة الاستشراق .ط01. تونس: مجمع الأطرش للكتاب .
12) علي محمد، إسماعيل. (2013). الاستشراق.ط 05 . مصر: دار الكلمة .
13) العمري، أكرم ضياء . (1994).السيرة النبوية الصحيحة. ط 06 . السعودية: مكتبة العلوم والحكم.
14) العقيقي، نجيب . (1964). المستشرقون . ط 03 . مصر : دار المعارف .
15) فوزي، عمر فاروق. (1998). الاستشراق والتاريخ الإسلامي. ط 01.الأردن : الأهلية للنشر والتوزيع.
16) فلهاوزن، يوليوس.(1968).تاريخ الدولة العربية ،ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة. ط02. مصر: لجنة التأليف والترجمة والنشر .
17) ابن كثير ،أبو الفداء إسماعيل. (2015). البداية والنهاية. تحقيق إبراهيم الزيبق.قطر:دار ابن كثير.
18) لويس، برنارد.(2006).الحشاشون ،تعريب محمد العزب موسى. ط02. مصر : مكتبة مدبولي.
19) لويس، برنارد. (1954). العرب في التاريخ،تعريب نبيه أمين.ط 01. لبنان : دار العلم للملايين.
20) مطبقاني، مازن بن صلاح. (2018). الاستشراق.ط 02 . مصر: دار البشير.
21) الميداني،عبد الرحمان حسن حبنكة.(2000) . أجنحة المكر الثلاثة . ط08 . سوريا : دار القلم .

22) Lammens, Henri.(1912) . Fátima et les filles de Mohamed, notes critiques pour l'étude de la s'ira .Roma :Pontifiai Institute Biblique.

23) Lammens, Henri.(1943). L'islam; croyances et institutions. (3Édition).Beyrouth :imprimerie catholique.